القدّيس بولس
في كتابات آباء الكنيسة اليونانيّين واللاتين

الأب أيوب شهوان
جامعة الروح القدس، الكسليك

مقدّمة

عَبَّر آباء الكنيسة، وهم قدّيسوها، وعلماؤها، وقادتها الروحيّون ومُلهِموها، في القرون الأولى (من الأوّل حتّى الثامن)، عن محبّتهم الشديدة للقدّيس بولس وإكرامهم العميق له، ودعوا المؤمنين إلى الاقتداء به، واكتناز تعاليمه، كما هو الأمر بالنسبة إلى قدّيسيّ العهدَين القديم والجديد[1]. وإذا ما أردنا أن نجمع المدائح التي قالوها فيه، وألقاب الشرف التي خلعوها عليه، لَتَطلَّبَ الأمر المجهودات الكبيرة والطويلة الأمد والمعمّقة والشاملة.

إنّ مصدر الشهادات الآبائيّة حول الرسول بولس هو إمّا كُتّابٌ ذائعو الصِيت، مثل القدّيسَين يوحنّا الذهبيّ الفمّ، وأغوسطينوس، وغيرهما كثيرون، وإمّا كُتّاب مجهولو الاسم أو مشكوك في هوّيّتهم، ولكنّهم يُعْتَبَرون كمرجعيّات هامّة في هذا المجال كونهم يشكّلون الوسطاء الأمناء بين التعليم البيبليّ التقليديّ وبين المؤمنين.

إعتبارًا من كون القدّيس بولس كاتبًا مُلهَمًا، وذا أهمّيّة استثنائيّة في المسيحيّة، كما يرى القدّيس غريغوريوس النِيصيّ الذي يدعوه "بولس الكبير" أو "العظيم"[2]، والقدّيس أغوسطينوس[3]، فإنّ رسائلَه تُقْرَأ كثيرًا في الكنيسة، وتُدْرَس بتوسّع وبتعمّق متواصلَين، حتّى ولو لم تُفْهَم دائمًا بشكل سليم وصحيح، إنْ في القديم وإنْ في أيّامنا أيضًا. وكما يحصل عادة بالنسبة إلى العظماء، وكما حصل ليسوع بالذات، انقسم الناس في شأن هذا الرسول؛ فناصَبَه بعضُهم العداءَ، كاليهود والمتهوِّدين[4]، والغنوصيّين[5] في القرون الأولى، وريّنان في العصر الحديث[6]؛ وأظهر آخَرون الودّ تجاهه ولكن زورًا، مثل مرقيون[7] قديمًا وغيره

(١) يوحنّا الدمشقيّ، **الإيمان الأرثوذكسي** ٤: ١٥ي.

(٢) غريغوريوس النيصيّ، **توجيه حول التربية الدينيّة** ٣٢، ٨.

(٣) يوحنا الحلو (مترجم)، **اعترافات القدّيس أغوسطينوس**، سلسلة التراث الروحيّ، دار المشرق، بيروت ٢٠٠٣: ١٣، ٤٠.

(٤) "انّهم المتهوّدون بولس بالمساومة على حقيقة الوحي الإلهيّ، لأنّه بات لا يُلزِم بالختانة مَن يهتدون على يده من الأمم إلى المسيح، وذلك، في نظرهم، طمعًا بعطف الأمم وكَسْبًا لرضاهم! يوجّه بولس الحرْم إلى أمثال أولئك المتهوّدين، مؤكّدًا لهم أنّ تحرير الأمم من شريعة الختانة ليس إلاّ أمانة للمسيح لا غير" (**الكتاب المقدس، العهد الجديد، إونجليون**، جامعة الروح القدس، الكسليك ١٩٩٢، حاشية غل ١: ١٠).

(٥) "تقول أوساط العقلانيّين إنّ بولس تأثّر بالغنوصيّة، وإنّه خلق غنوصيّة مسيحيّة ليتجاوب والحاجات الدينيّة لدى الوثنيّين المهتدين. ولكن جاء مَن يبيّن أنّ هذا القول لا أساس له، وأنّ بولس ظلّ في التقليد اليهوديّ الصافي" (بولس الفغالي، "غنوصيّة"، في: **المحيط الجامع في الكتاب المقدّس والشرق القديم**، بيروت ٢٠٠٣).

(٦) Voir Ernest RENAN, *Saint Paul*, Paris 1869.

(٧) ر ج "Marcion", in *New World Encyclopaedia*، حيث نقرأ أنّ "مرقيون يؤكّد أنّ يسوع المسيح هو المخلّص الذي أرسله الله، وأنّ بولس هو رسوله الرئيسيّ... وإذ يركّز مرقيون على تقاليد الإنجيل البولُسيّة، يشعر أنّ نظريّات الإنجيل الأخرى كلّها هي معارضة للحقيقة. ينظر إلى حجج بولس المتعلّقة بالشريعة وبالإنجيل، بالغضب والنعمة، بالأعمال وبالإيمان، باللحم والروح، بالخطيئة والبرّ، بالموت والحياة، باعتبارها جوهر الحقيقة الدينيّة... كان قانون الكتاب المقدّس في نظره يقوم على ١١ كتابًا هي: ترجمته الخاصّة لإنجيل لوقا، وعشر رسائل لبولس. كلّ رسائل وأناجيل العهد الجديد الأخرى تمّ نبذها" (ر ج: *Eusebius' Church History*, Christian Classics Ethereal Library, 2008).

لاحقًا؛ وتصرّف بعضهم بأمانةٍ وصدق ومحبّة وإكرام، مثل أوريجانوس، والذهبيّ الفمّ، وغيرهما كثيرون.

إنّ آباء الكنيسة القدّيسين هم بالتأكيد أفضل القارئين لرسائل القدّيس بولس، وأكثر المتماهين مع شخصه وحياته بالطرق الأسمى وبالوسائل الأفعل؛ فَهُمْ يعرفون هذا الرسولَ الفريدَ وتعاليمَه معرفةً واقعيّةً ووجوديّةً، أي أنّ معرفتَهم هذه هي موجَّهة نحو الحياة والعَمَل، وليست بالتالي نظريّات مجرَّدة لا طائل منها. فقد رأوا في بولس "مسيحًا آخَر" بامتياز، وذلك لأنّ قارئه يشعر أنّه أبدًا من الحاضر، اليومَ كما في زمانه، لأنّ يسوع يخلِّد مَن يُحبّه حقًّا، كما عبّرت عن ذلك العذراء مريم بقولها: "ها منذ الآن تطوّبني جميع الأجيال" (لو ١: ٤٨)؛ أو كما قال يسوع: "الحقّ أقول لكم: حيثما تُعلَن البشارة في العالم كلّه، يُخبَر أيضًا بما صنعت هذه (المرأة)، إحياءً لذكرها" (مر ١٤: ٩). في الواقع، القدّيسون لا يزولون أبدًا، بل يبقون خالدين مثل يسوع المسيح معلّمهم وربّهم، الذي "هو هو أمس واليوم وإلى الأبد" (رج عب ١٣: ٨)، كما قال هو ذاتُه: "السماء والأرض تزولان، وكلامي لن يزول" (مت ٢٤: ٣٥)؛ أو أيضًا: "هاءنذا معكم طوال الأيّام إلى نهاية العالم" (٢٨: ٢٠).

هكذا كان الذهبيّ الفمّ (†٤٠٧)، مثلاً، يشعر أنّ بولس الرسول هو حيٌّ في كنيسة زمانه، وبنوع خاصّ في الليتورجيّا[٨]. في الواقع، لدى المسيحيّين، شعور بأنّهم أبناء روحيّون للقدّيس بولس، خاصّة بفضل أقواله النابضة بروح الأبوّة السامية: "أريد أن أنصحكم نصيحتي لأبنائي الأحبّاء؛ فقد يكون لكم ألوف الحرّاس في المسيح، ولكن ليس لكم عدّة آباء، لأنّي أنا الذي ولدكم بالبشارة، في المسيح يسوع" (رج ١ كو ٤: ١٤-١٥)؛ ويضيف: "يا بَنِيَّ، أنتم الذين أتمخّض بهم مرّة أخرى حتّى يُصوَّر فيهم المسيح" (غل ٤: ١٩). يلعب بولس دورًا جوهريًّا في حياة المؤمنين، كدور الأمّ (١ تس ٢: ٧) ودور الأب (١ تس ٢: ١١؛ ١ كو ٤: ١٥) في حياة أولادهم، لذا أهلُ غلاطية وأبناءُ كلّ الكنائس الأخرى التي أسّسها مدينون له بحياتهم، لأنّه بشّرهم بالمسيح، فكأنّي به قد ولدهم ولادةً روحيّة للمسيح، ولا يزال يعاني الآلام ويحتمل الصعوبات في سبيلهم وفي سبيل الإنجيل (٢ كور ٤: ١٠-١٢؛ كول ١: ٢٤-٢٥). نحن كلّنا، بالتالي، أبناء بولس بالروح، مَدينون له، ولعقيدته الموحاة، ولحياته المثاليّة، ولشهادته المُلهِمَة.

أ- معطيات آبائيّة حول بولس

ينقل إلينا الأدب الآبائيّ معلومات غير قليلة عن بولس، لا نجدها في كتب العهد الجديد، أقلّه بشكل صريح وواضح. سنكتفي ببعضها، أي بتلك التي تبدو الأهمّ والأكثر إفادة.

١ - بُنْيَة بولس وخُلُقُه

نَدينُ بالمعلومات المتعلّقة ببُنْيَةِ بولس الجسديّة وبخُلُقِه وبسيرته لمؤلّفٍ مجهول الكاتب يرقى إلى القرن الثاني، ويُدعى **أعمال بولس**[٩]، هو كناية عن سيرة هذا الأخير، حيث نجد ما هو مقبول وما هو أقلّ قبولاً. "لا شكّ في أنّ هذا الكتاب هو أحد المؤلّفات غير القانونيّة؛ ويدلّ استعمال أوريجانوس له على رواجه في الأصقاع المصريّة، في زمنٍ لم تكن فيه الأسفار القانونيّة قد ثُبِّتَت. وما يجدر حقًّا التنبّه له هو أنّ المؤلّف المذكور بات مفقودًا، فلا ينبغي الخلط إذًا بينه وبين مؤلّفٍ منحول يُعرف بـ **أعمال بولس وتقلا**"[١٠].

(٨) يوحنّا الذهبيّ الفم، **في الكهنوت** ٤، ٩. الكاتب نفسه، **تقاريظ القدّيس بولس**، سلسلة النصوص التقريظيّة، المكتبة البولسية، لبنان ٢٠٠٢: ٤، ١؛ ٥، ١؛ بولس الفغالي، "مقالات في الكهنوت للقدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم"، في: **يوحنّا الذهبيّ الفم في المئويّة السادسة عشرة لوفاته**، سلسلة آباؤنا المعلّمون ٢، المكتبة البولسيّة ٢٠٠٨، ص ٢٩-٥٠.

(٩) إسكندر شديد (ترجمة)، **أعمال بولس**، في: **الأعمال والرسائل المنحولة**، سلسلة الكنيسة في الشرق ٩، نسبيه-غوسطا ١٩٩٩، ص ١٥٣-١٩٥.
Les Actes de Paul, in: *Écrits apocryphes chrétiens* I, édition publiée sous la direction de François BOVON et Pierre GEOLTRAIN, Bibliothèque de la Pléiade, Gallimard 1997, p. 1115-1177.

(١٠) جورج خوّام، **أوريجانس، في المبادىء**، سلسلة الفكر المسيحيّ بين الأمس واليوم ٣١، منشورات المكتبة البولسيّة ٢٠٠٣، حاشية ١٥، ص ٨٦.

في كتاب **أعمال بولس وتقلا**[١١]، لدينا وصف موجز لبُنية بولس، هو التالي: "هو رَجُلٌ قصيرُ القامة، أصلع، رِجلاه مُقَوَّسَتان، مملوءٌ عافية، الحاجبان مُتَّصلان، الأنفُ معقوف قليلاً، وهو مملوءٌ لطفًا؛ فقد كان يبدو أحيانًا كإنسان، وأحيانًا أخرى كان وجهه يبدو كوجه ملاك"[١٢].

بعد ذلك، وفي **كتاب أعمال بولس** (٣)، يقدّم هذا الأخيرُ ذاتَه إلى "الإخوة" في الإيمان قائلاً: "أنا خادمُ الله...، صغير ومجهول بين الأمم"[١٣]. قد يكون هذا المنحول هو المرجع المباشَر أو غير المباشَر للوحات مماثلة عن القدّيس العظيم، رَسَمَها كتّابٌ لاحقون، مثل يوحنّا مَلَلاس في القرن السادس[١٤] وغيره.

إنّ هذا الرسم لبولس هو بالتأكيد غير كامل، ولكنّه صالح إلى حدٍّ كبير لأنّه مبنيّ –أقلّه جزئيًّا– على معطيات من رسائله هو بالذات ومن كتاب أعمال الرسل، نورد في ما يلي بعضها: "ورُبَّ قائل يقول: إنّ الرسائل شديدة الوقع، قويّة العبارة، ولكن إذا حضر بنفسه، كان شخصًا هزيلاً، وكلامه سخيفًا" (٢ كو ١٠: ١٠)؛ في ذلك إشارة إلى هيئة بولس الخارجيّة، أو إلى اسمه "بولس" اللاتينيّ، الذي يعني "قليل، صغير"، أو إلى تواضعه وفقره وتصرّفه الوضيع؛ فحرّر ردًّا رائعًا ملؤه الحكمة المؤدِّبة والروح الأبويّة، هو التالي: "وأنا، أيُّها الإخوة، لَمَّا أَتَيتُكُم، ما أَتَيتُ ببَراعَةِ كَلِمَةٍ أَو حِكْمَة، مُبَشِّرًا إِيَّاكم بسِرِّ، إِذْ إِنّي ما قَضَيتُ أَن أَعْرِفَ بَينَكُم شَيئًا إِلاّ يَسُوعَ المَسيح، يَسُوعَ المَسيحَ مَصلُوبًا. وأَنا، بِضُعْفٍ وخَوفٍ ورِعدَةٍ شَدِيدَةٍ صِرْتُ إِلَيكُم، ولَم تَكُنْ كَلِمَتي وبِشارتي بِكَلِمَاتِ حِكْمَةٍ مُقْنِعَة، بل بِإِظْهَارِ رُوحٍ وقُوَّة، لِئَلاَّ يَكُونَ إِيمانُكُم قائمًا على حِكْمَةٍ مِن بَشَر، بل على قُوَّةِ مِنَ الله" (١ كو ٢: ١–٥).

ومن التّهم الموجّهة إلى بولس أنّه متواضع حليم، عندما يكون حاضرًا بينهم في كورنتس، ولا يُظهر جرأة عليهم إلاّ عندما يكون غائبًا عنهم، وهذا ما نقرأه في ٢ كو ١٠: ١: "أَنا بولسُ... المُتَواضِعُ بَينَكُم في الحَضْرَة، وفي الغَيبَةِ جَرِيءٌ عَلَيكم". يُجيب بولس على هذه التهمة فيقول: "إِن كُنْتُ أُمِّيًّا بالكَلِمَة، فَلَسْتُ كذلِكَ في المَعْرِفة" (١١: ٦).

ويلمح هو ذاته إلى فراره من وجه مطارديه في دمشق فيقول: "دُلِّيتُ في زنبيل من كوّة على السور، فنجوت من يديه" (٢ كو ١١: ٣٣)؛ هذا الحدث المذكور في أع ٩: ٢٤–٢٥، وقد بقي حدثًا مُذِلاً مؤلمًا، وفي الوقت نفسه موضوع فخر في ذاكرة بولس.

وعن أوضاع جسديّة خاصّة يقول بولس: "وإِنَّكُم ما احتَقَرْتُم ولا كَرِهْتُم ما كانَ لَكُم مِحْنَةً في جَسَدي، بل تَقَبَّلتُمُوني كَأَنّي مَلاكٌ منَ الله، كَأَنّي المَسيحُ يَسُوع" (غل ٤: ١٤). كان مرض بولس جديرًا بأن يُبعد عنه أهل غلاطية، لكنّهم، بالرغم من ذلك، تعلّقوا به. غير أنّ قلب الغلاطيّين تغيّر وانحرف بسبب إخوة كذّابين يحرّفون الإنجيل، ويجرّحون بولس (رج غل ٦: ١٣). ولكن، وبالرغم من وهن جسده، تقبّله الغلاطيّون، لا كأنّه "ملاك من الله" فحسب، بل كأنّه، المسيح يسوع نفسه (رج ١ كو ٢: ٣–٥؛ ٢ كو ٤: ١٠–١٢).

وعن التزامه بنذر يقول لوقا: "ومكث بولس بضعة أيّام في كورنتس، ثم ودّع الإخوة وأبحر إلى سورية، ومعه برسكلّة وأكيلا، بعدما حلق رأسه في قنخريّة لنذر كان عليه" (أع ١٨: ١٨).

(١١) M. ERBETTA, *Gli apocrifi del NT* II, Marietti 1966, 242ss; B. ALTANER, *Patrologia*, Marietti 1977, p. 139s.

(١٢) **أعمال بولس وتقلا** ٢، ٣ (B. ALTANER, *Patrologia*, p. 259)؛ رج أيضًا:
János BOLLÓK, "The Description of Paul in Acta Pauli", in Jan N. BREMMER, *The Apocryphal Acts of Paul* and Thecla, Kampen 1996, p. 1-15; *Écrits apocryphes chrétiens*, *op. cit.*, p. 1129-1130; *Actes de Paul et de Thècle*, in Johannes Baptist BAUER, *Les apocryphes du NT*, coll. Lire la Bible, n. 37, Cerf, Paris 1973, p. 78 (Édition originale allemande : 1988); Robert GRANT, "The Description of Paul in the Acts of Paul and Thecla", *Vigiliae christianae*, 36 (1982) 1-4.

(١٣) B. ALTANER, *op. cit.*, p. 270.

(١٤) PG 97, 389; cf. B. ALTANER, *op. cit.*, 236.

فالنذر يمكن ، لغويًّا ، أن يكون نذرَ أَكيلا أَو بولس. ويُرجَّح أنّه نذر بولس، ولكن من غير المؤكَّد إذا كان هذا النذر غير ذاك الذي يَرِدُ ذكره في أع ٢١: ٢٣-٢٧، وهو تَرْك الشَّعر يسترسل، كما يفعل نذير الربّ (رج عد ٦: ٩-١٨).

كلّ هذه المعطيات سمحت للعديد من آباء الكنيسة بأن ينقلوا إلينا رَسْمًا روحيًّا وخُلُقيًّا عن الرسول بولس، لا أبهى ولا أجمل، كما فَعَلَ، مثلاً، أوريجانوس[١٥]، والذهبيّ الفمّ[١٦]، وأغوسطينوس[١٧]، وغيرهم.

٢ - بولس البتول

هناك تساؤل حول بتوليّة بولس، التي يُشْهَد لها بقوّة وبوفرة، انطلاقًا، على ما يبدو، من كتاب **أعمال بولس**، حيث نجد الرسول بصورة المُبشِّر بقوّةٍ بالتَعَفُّفِ الكاملِ، أي بالبتوليّة، حُبًّا بالله[١٨] وبالقريب. نجد هذه الصورةَ لبولس البتول أيضًا لدى ترتوليانوس[١٩]، وأوريجانوس[٢٠]، وأغوسطينوس[٢١]، وإيرونيموس (†٤١٩/٤٢٠) وغيرهم؛ ويمدح هذا الأخيرُ بولسَ على قراره بالبقاء بتولاً، فيقول: "بقي بولس بتولاً، ليس تنفيذًا لأمرٍ تلقّاه، بل بإرادة عفويّة خاصّة"[٢٢].

لكن بالتأكيد، تأثّر آباء الكنيسة بنوع خاصّ بما كتبه بولس حول البتوليّة، خاصّة في النصّ الشهير في ١ كو ٧: ٣٤: "المَرأَةُ العازِبةُ والعَذْراءُ تَهْتَمَّانِ بما لِلرَّبّ، لِتَكُونا مُقَدَّسَتَينِ جَسَدًا ورُوحًا". ممّا لا شكّ فيه أنّ تعليم بولس في هذا المجال قد ترك أثرًا كبيرًا في نفوس آباء الكنيسة، وهذا ما نتبيّنه من تعاليمهم كما من سِيَرِهم بالذات؛ نورد في ما يلي بعض الأمثلة:

قال القدّيس أمبروسيوس: "البتوليّة أَحضرت من السماء ما يمكن تقليده على الأرض". وقال القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم: "إذا كنتم تريدون الطريق الأسمى والأعظم، فالأفضل ألاّ يكون لكم علاقة مع أيّة امرأة كانت". وقال ترتليانوس: "ما أكثر الذين نذروا البتوليّة من ذات لحظة عمادهم، وأيضًا ما أكثر الذين في الزواج منعوا أنفسهم بموافقة مشتركة عن استعمال الزواج، فجعلوا أنفسهم خصيانًا من أجل ملكوت السماوات" (مت ١٩:١٢)[٢٣].

لاحقًا، في القرن الرابع، أعرب القدّيس أثناسيوس الإسكندريّ، وهو أحد أعظم آباء الكنيسة المصريّة، عن اعتقاده بأنّ تعليمَ بولس حول البتوليّة المكرَّسة قد استُلهِمَت من مَثَل العذراء مريم، التي كان الرسول بولس يعرفها بشكلٍ ما. في **الرسالة إلى العذراء**، بعد أن رَسَمَ القدّيس أثناسيوس لوحةً خُلُقيّة وروحيّة عن العذراء مريم[٢٤]، قدّم الفَرَضيّة التالية:

"مِن المحتمل أنّ بولس أيضًا كان يعرف حياةَ مريم، لكونه قد أخذ نموذجَه منها كي يُبرِز رأيَه الخاصَّ في البتوليّة. إليك السبب الذي لأجله كتب هكذا إلى أهل كورنتس: "في ما يتعلّق بالعذارى، ليس لي أمر من عند

(١٥) أوريجانوس، **في الصلاة** ٦، ٥. رج F. COCCHINI, *Il Paolo di Origene*, Roma 1992, 32ss.
(١٦) يوحنّا الذهبيّ الفم، **تقاريظ القدّيس بولس**، في عدّة أماكن من الكتاب.
(١٧) أوغسطينوس، **مدينة الله** ١٤، ٩، ٢؛ رج يوحنا الحلو (مترجم)، **مدينة الله للقدّيس أوغسطينوس**، ٣ مجلّدات، سلسلة التراث الروحيّ، دار المشرق، بيروت ٢٠٠٢.
(١٨) **أعمال بولس** ٢: ٥ي.
(١٩) ترتوليانوس، **إلى زوجته** ١، ٣، ٦.
(٢٠) أوريجانوس، **تفسير إنجيل متّى** ١٤، ١٦.
(٢١) أغوسطينوس، **في البتوليّة المقدّسة** ٤٠، ٤١.
(٢٢) إيرونيموس، **الرسالة** ٢٢، ٢٠؛ رج ٤٨، ٣.
(٢٣) نقلاً عن : http://st-takla.org
(٢٤) Cf. L. CIGNELLI, *Maria e la vita consacrata nei Padri della Chiesa*, Gerusalemme 2006, p. 42.

الربّ، بل أعبّر عن رأيي، كونُ الربِّ قد أنعم عليّ بأن أكون أهلاً للثقة" (١ كو ٧: ٢٥). أنا أعتقد أنّكم أنتم أيضًا قد فهمتم جيدًا أنّ هذا قد قيل (مِن قِبَل بولس) على أثر ملاحظة...، كونُ صورته (صورة البتوليّة) لم تظهر إلاّ في مريم". وإذ يكمل بعد ذلك تفكيره، يُسقط القدّيسُ عبارةَ "من المحتمل" التي تعني شيئًا من الشكّ، فيقول: "في الواقع، هو أيضًا، أي بولس، لم يعرفها (أي البتوليّة المكرسَّة) من خلال الشريعة (الموسويّة)، بل استخلص هذه التوصيات من سلوك مريم، كما قلت قبلاً"[٢٥].

٣ – هل عرف بولس العذراء مريم؟

لا تأتي نصوص العهد الجديد على ذكر معرفة القدّيس بولس للعذراء مريم أبدًا؛ بالمقابل، يبدو أنّ الأدب الآبائيّ يُفيد بعضَ الشيء عن هذا الموضوع؛ فآباء الكنيسة قد تنبّهوا إلى الأمر، ولم يهملوا شيئًا يتعلّق بالحياة المسيحيّة، لا بل تحرّوا عن كلّ الأبعاد الجوهريّة، بما في ذلك "البعد المريميّ"، كما فعل بولس، ولو بإشارة سريعة إلى الأمر، وكما كتب البابا يوحنّا بولس الثاني، في رسالته **أمّ الفادي**: "هوذا ابنك! نتبيّن في هذه الكلمات، بوضوح كلّيّ، سبب هذا البُعد المريميّ في حياة تلاميذ المسيح، ليس فقط في حياة يوحنّا الحاضر في تلك الساعة عند قدمَيّ الصليب مع أمّ معلّمه، بل في حياة كلّ تلميذ للمسيح، وكلّ مسيحيّ. إنّ البعد المريميّ في حياة تلميذ المسيح، يُعَبَّر عنه، بشكل خاصّ، بهذه التقدمة البنويّة بالذات لوالدة الاله، تلك التي بدأت في وصيّة الفادي على الجلجلة؛ فالمسيحيّ، إذ يقدّم ذاته بروح البنوّة، لمريم، على غرار الرسول يوحنّا الذي أخذها إلى بيته الخاصّ[٢٦]، يكون له، في عداد ما يخصّه شخصيًّا، أمّ المسيح، فتدخل في مدى حياته كلّها، أعني في الأنا الإنسانيّة والمسيحيّة التي له"[٢٧].

وفي كتاب **أعمال بولس**، يحارب الرسول الهرطقة الدوساتيّة، ويطلب من مؤمنيّ كورنتس محاربة هذه الأخيرة كما يفعل هو، ويعلّم بوضوح وبقوّة، ليس فقط السرَّ الفصحيّ، بل أيضًا السرَّ الميلاديّ، أي التجسّد الخلاصيّ بواسطة العذراء مريم[٢٨]. لِنُدرِج هنا نصًّا صريحًا وملفتًا من كتاب **أعمال بولس** بالذات يتكلّم على التجسّد في إطار تاريخ الخلاص: "بعد سقطة الأبوَين الأوَّلَيْن بتحريض إبليس (تك ٣)، لم يشأ الله الكلّيّ القدرة والعادل أن يطرد خليقته طردًا تامًّا، بل ترأّف بهما من السماء، فأرسل روحَه إلى الجليل إلى مريم، التي آمنتْ من كلّ القلب، وقَبِلَت الروح القدس في حشاها، بطريقة استطاع بها يسوع أن يأتي إلى العالم. وهكذا هُزِم الشرّير (الشيطان) بالجسد عينه الذي به كان قد انتَصَرَ، واتّضح بالتأكيد أنّه لم يكن الله"[٢٩]. يفسّر هذا النصُّ ما ورد في غل ٤: ٤ ("مولود من إمرأة")، وهو النصّ الوحيد الذي يتكلّم فيه بولس صراحةً عن أُمّ ابنِ الله، الذي صار إنسانًا: "لمَّا أَتى مِلْءُ الزَّمَن، أَرْسَلَ اللهُ ابنَهُ مَولُودًا مِن امْرَأَة، مَولُودًا تَحتَ الشَّريعة". يشير بولس إلى أمّ يسوع، داعيًا إيّاها "امرأة"، دلالة على سرّ تجسّد ابن الله، وانتمائه إلى جميع الناس بغير استثناء. في هذا النصّ، وهو أقدم نصّ في العهد الجديد عن العذراء مريم، تشديدٌ على الدور الفريد الذي جعله الله للعذراء مريم، امرأة العهد الجديد، في تدبيره الخلاصيّ.

وينبغي لفت الانتباه إلى أنّ كتاب **أعمال بولس** المنحول يركّز على إيمان

(٢٥) ATHANASE, *Lettres festales*, CSCO 151, 62; cf. ERBETTA, p. 72.

(٢٦) أغوسطينوس، **مقالة في إنجيل يوحنّا** ١١٩، ٣: "استقبلها عنده، لا في منزله، لأنّه لم يكن يملك شيئًا يخصّه، بل أفسح لها مكانًا في المسؤوليّات التي كان يكرّس ذاته لها من كلّ قلبه".

(٢٧) يوحنّا بولس الثاني، **أمّ الفادي، رسالة عامّة في الطوباويّة مريم العذراء في حياة الكنيسة عَبر مَسيرتها على الأرض**، الفاتيكان ١٩٨٧، ٤٥ي، ص ٨٦.

(٢٨) ERBETTA II, p. 258

(٢٩) **أعمال بولس** ٧، ٣، رج ٧، ٢ي.

العذراء مريم السخيّ والمتأهّب؛ هذا ما نجده لدى القدّيسَين يوستينوس[٣٠] وإيريناوس[٣١] المعاصرَين للكتاب المذكور.

٤ – كتاب انتقال مريم

هو كتاب منحول أيضًا، يرقى إلى القرن الثاني، يجعل بولسَ، وكان لا يزال "حديثَ الإيمان"، يلتقي العذراءَ مريم التي كانت على وشك الموت[٣٢]. ومع كلّ الرسل الباقين الذين توافدوا إلى أورشليم بطريقة عجيبة لتشييع جثمان العذراء مريم، بمن فيهم بولس، الذي دخل "بيتَ مريم" وتكلّم إليها قائلاً: "يا مريم أختنا، وأمَّ المخلَّصين كلِّهم، لتكن نعمةُ الربّ معك"؛ ثمّ أخذ يدها وقال لها: "فليباكْكِ الربُّ، مخلِّص الجميع"[٣٣].

عمليًّا، نَسَبَ مؤلِّفُ هذا المنحول، وهو يهوديّ مسيحيّ تقيّ وذو إحساس مرهَف، إلى الرسل الآخَرين، بمن فيهم بولس، مشاعرَ وكلماتِ يوحنّا الإنجيليّ، الرسول الحبيب والأمين: "فرأى يسوع أمَّه وإلى جانبها التلميذ الحبيب، فقال لأمِّه: أيّتها المرأة، هذا ابنك. ثم قال للتلميذ: هذه أمّك. ومنذ تلك الساعة قبلها التلميذ في بيته" (يو ١٩: ٢٦-٢٧)[٣٤].

ماذا يمكن الاعتقاد في هذا الأمر هنا وفي أخبار أخرى، مصدرها من خارج كتب العهد الجديد، حول بولس الرسول؟ بالتأكيد هناك مجال لمناقشتها. لكن لا يجوز نَبْذُها بالمطلق لمجرَّد أنّها غير موجودة في أسفار العهد الجديد. نحن نعلم أنّ التقليد، الذي نقله إلينا آباء الكنيسة، يشمل أيضًا وخاصّة معطيات الكتاب المقدّس، كما اعتقدت الكنيسة دائمًا[٣٥].

٥ – بولس والبتول القدّيسة والشهيدة تقلا

ما نعرفه عن القدّيسة تقلا وعن دور القدّيس بولس في اهتدائها إلى الإيمان المسيحيّ يأتينا من كتاب **أعمال بولس** أيضًا الذي يفيدنا بأنّ هذا الأخير، عندما كان يعظ في إيقونية (في آسيا الصغرى)، ردّ إلى الإيمان عذراء شريفة النَسَب، تركت خطّيبها فورًا وأصبحت مثل "مريمَ" بالنسبة إلى الرسولِ بولس، إذ تتلمذت له وعاونته بأكثر ما يكون من الأمانة في التبشير بالإنجيل[٣٦]. في الكتاب عينه تُطلَق على تقلا ألقابُ شرفٍ مختلفة، مثل "أمَة المسيح"، وبرسولة الله وبتولته"[٣٧].

سيَقْبَل العديد من آباء الكنيسة هذه الرواية ويقدّرونها حقّ قدرها، كالقدّيس أمبروسيوس (٣٩٧)[٣٨] الذي يقدّم القدّيسة تقلا مثالاً للعذارى المكرّسات مباشرةً بعد السيّدة العذراء[٣٩]. وإذا اعتمدنا هذه المعلومات وقبلنا بها، لا يكون بولس عندها إطلاقًا ذا ميولٍ عدائيّة تجاه النساء، كما يُشيِّع البعض اعتباطيًّا ودون أيّ مرتكزات تثبت ذلك أو حتّى تسمح بالإيحاء به.

(٣٠) القدّيس يوستينوس، **الدفاع عن المسيحيّين. الحوار مع تريفون**، تعريب جورج نصّور، أقدم النصوص المسيحيّة، سلسلة النصوص الليتورجيّة ٧، الكسليك ٢٠٠٧، ص ٣٠٥-٣٠٧: ١٠٠.

(٣١) إيريناوس، **ضدّ الهرطقات** ٣، ٢٢، ٤. رج L. CIGNELLI, *Maria nuova Eva nella patristica greca,* Assisi 1966, 31-39.

(٣٢) *Transitus Romano* 22s. 45 : ERBETTA, *op. cit.*, I/2, Marietti 1981, 468.471.

(٣٣) **انتقال مريم**، فصل ٢٨.

(٣٤) Cf. L. CIGNELLI, " Il rapporto Maria-Giovanni evangelista nell'exegesi patristica", in AA.VV., *Tuo padre e io ti cercavamo (Lc 2, 48)*, Jerusalem, Studium Theol. Salesianum 2007, 314-318.

(٣٥) يوحنّا الدمشقيّ، **الإيمان الأرثوذكسيّ**، ٤: ١٢، ١٦؛ الدستور العقائديّ في **الوحي الإلهيّ، كلام الله** ٨ي. رج أيضًا القديس يوحنّا الدمشقيّ، **المئة مقالة في الإيمان الأرثوذكسيّ**، عرّبه عن النصّ اليونانيّ أدريانوس شكّور، سلسلة الفكر المسيحيّ بين الأمس واليوم، المكتبة البولسيّة، لبنان ١٩٩١.

(٣٦) **أعمال بولس** ٢، ٧ – ٤٣؛ رج: ERBETTA II, 260 - 269.

(٣٧) **أعمال بولس** ٢ – ٤٣.

(٣٨) cf. H. SAVON. *Ambroise de Milan (340-397)*, Deselée, Paris 1997.

(٣٩) امبروسيوس، **عظات حول البتوليّة** ٢، ٣، ١٩– ٢١.

٦ – القدّيس بولس الكاتب

يتكلّم آباء الكنيسة ، وهم المثقّفون والعلماء العارفون، على بولس الكاتب، فيُبرزون غنى فكره الفريد وعمقَه، من جهة، ويبيّنون الصعوبات غير القليلة والمتنوّعة التي يصادِفها قرّاؤه في أسلوبه، من جهة ثانية. وعلى خلاف يوحنّا الإنجيليّ الذي يجمع العمقَ العقائديّ وبساطةَ الأسلوب، نجد لدى بولس أنّ العمقَ العقائديّ هو الأقوى.

يلاحظ الذهبيّ الفمّ أنّ "بولس يُعنى دائمًا بأن يعبّر عن أفكاره بأقصى ما يكون من الوضوح"[٤٠]. ولكن قد يكون من التجاسر أن نطرح السؤال حول نجاحه دائمًا في ذلك. في الواقع، ليس قليلاً عددُ الكتّاب القدماء والحديثين الذين يشيرون إلى ذلك، بدءًا برسالة بطرس الثانية حيث نقرأ: "وقد ورد في رسائله أمور غامضة يحرّفها الذين لا عِلمَ عندهم ولا ثبات، كما يفعلون في سائر الكتب، وإنّما يفعلون ذلك لهلاكهم" (٣: ١٦). ويقول أوريجانوس (٢٥٣/٢٥٤) في هذا السياق بأنّ "بولس يستعمل مراحل هي أحيانًا مختلِطَة وقليلة الوضوح، ويركم أفكارًا فوق أفكار إلى حدّ تعقيد الأمور"[٤١]. ويشكّل ما كتبه إيرونيموس صدى لأوريجانوس، فيلفت الانتباه إلى أنّ الرسالة إلى الرومانيّين "هي متلوّية وغامضة إلى حدّ أنّه، من أجل فهمها، يتطلّب الأمرُ معونةَ الروح القدس؛ فهو الذي، آخِر الأمر، مَن أَمْلَى نَصَّها مستخدمًا الرسول لهذه الغاية"[٤٢]. ويشير أغوسطينوس (†٤٣٠) إلى أمر ملفت آخَر، وهو أنّه، بين عدّة أمور، يقول بأنّه "مذعور" من تعقيد هذه الرسالة البولُسيّة، إلى حدّ التخلّي عن تفسيرها كاملة[٤٣]. كذلك لا يُخفي شارحو رسائل بولس الحديثون الصعوبات التي يواجهونها في مهمّتهم.

في الحقيقة، إنّ قراءة رسائل بولس، وهو الرّابيّ المسيحيّ العالِم، ليست بالأمر السهل؛ فهو مفكّر قدير، وعميق، ومُثقَل بالمعرفة، يطفح كيانُه عقيدةً وشغفًا؛ هذا ما لفت الانتباهَ إليه القدّيسُ إيرونيموس الذي يقول: "أودّ أن أستشهد ببولس الرسول: في كلّ مرّة أقرأه، يبدو لي أنّني اسمع أصواتًا وليس كلمات"[٤٤]. في كلّ حال، عندما يكون المسيح "في قلب"[٤٥] قارىء بولس، كما كان بالنسبة إلى هذا الأخير، ويكون له الحَدْسُ لإدراك سرّ الحقّ والمحبّة[٤٦]، لا ينتهي عندها الكلام عليه والتبشير به، إذ تكون هناك رغبة في القول دائمًا أكثر وبالطريقة الأفضل.

٧ – استشهاد في روما أيّام نيرون

يتوقّف كتاب أعمال الرسل، في سرده أعمال بولس، مع سجن هذا الأخير في روما، حيث "مكث سنتين كاملتَين في منزل خاصّ استأجره، يستقبل جميع الذين كانوا يأتونه، ويعلن ملكوت الله، ويعلّم بكلّ جرأة ما يختصّ بالربّ يسوع المسيح، لا يمنعه أحد" (أع ٢٨: ٣٠-٣١). كان العامان المُدَّة القُصوى، التي يحقّ للسلطة الرومانيّة أن تسجن متّهمًا دون حكم قضائيّ. وكان على الوالي، وقد مَرَّ العامان على سَجن بولس في

(٤٠) يوحنّا الذهبيّ الفم، **عظات في الأولى إلى الكورنثيّين** ٣٠، ٢.
(٤١) أوريجانوس، **تفسير الرسالة إلى الرومانيّين**، المقدّمة.
(٤٢) إيرونيموس، **الرسالة** ١٢٠، ١٠.
(٤٣) AUGUSTIN, *Retractationes* 1, 25.
(٤٤) إيرونيموس، **الرسالة** ٤٩، ١٣.
(٤٥) "وأسأله أن يهب لكم... أن يقيم المسيح في **قلوبكم** بالإيمان..." (رج أف ٣: ١٦-١٧).
(٤٦) "أنا أصغر صغار القدّيسين جميعًا وُهبت لي هذه النعمة، وهي أن أبشّر الوثنيّين بما في المسيح من غنى لا يُسبر غوره، أمكنكم أن تدركوا مع جميع القدّيسين ما هو العرض والطول والعلوّ والعمق، وأبيّن كيف حقّق ذلك السرّ الذي ظلّ مكتومًا طوال الدهور في الله خالق جميع الأشياء" (أف ٣: ٨-٩). ونقرأ أيضًا في فل ٣: ٧-٨: "إلاّ أنّ ما كان في كلّ ذلك من ربح لي عددته خسرانًا من أجل المسيح، بل أعدّ كلّ شيء خسرانًا من أجل المعرفة السامية، معرفة يسوع المسيح ربّي. من أجله خسرت كلّ شيء، وعددت كلّ شيء نفاية لأربح المسيح".

قيصريّة، أن يُطلقه، و لم يفعَل (أع ٢٤: ٢٧)، لكن، على الأرجح، حصل ذلك في روما (٢٨: ٣٠). لا يفيد لوقا عمّا حدث لبولس بعد هذين العامَين: هل صدر الحكم عليه ، أو أُطلق سَراحه؟ فهَمُّ لوقا أن يَصِلَ بولس إلى روما، ويبشّر بيسوع المسيح في عاصمة العالم الوثنيّ، تنفيذًا لوصيّة يسوع بالذات: "وتكونونَ شُهُودي في أُورشَليم، وفي كُلِّ اليَهوديَّة والسامرة، حتَّى أَقاصي الأَرض" (أع ١: ٨). أثناء هذين العامَين، كتب بولس، وهو في سجنه، رسائله إلى أهل كولسّي، وأفسس، وإلى تلميذه فيلمون، وبشّر بالانجيل، ممّا يعني أنّ كلمة الله تبقى غير مقيَّدة (رج ٢ تم ٢: ٩)، بالرغم من كلّ ما تتعرّض له من مضايقات وخطر واضطّهاد، وتبلغ إلى أقاصي الأرض.

وما نعرفه عن المرحلة التي تلت يأتينا من الأدب الآبائيّ؛ فالقدّيسُ إكليمنضوس الروماني[٤٧] يشهد، في القرن الأوّل، على استشهاد بولس في روما: "ونتيجةً للحسد والشقاق، أظهرَ كيف تُنالُ جائزةُ الصبر. وبعد أن كُبِّلَ بالسلاسل سبع مرّات، ونُفِيَ ورُجِمَ، وبعد أن أصبح بشيرًا في الشرق والغرب، نال من أجل إيمانه مجدًا ساطعًا. وبعد أن علَّم العدلَ للعالَم أجمع، وبلغَ أطرافَ الغرب، وأتمَّ جهادَه أمام الحكّام، غادر هذا العالَم، وذهب إلى مقرّ القدّيسين، تاركًا مثالاً رائعًا للصبر"[٤٨]. ويتكلّم كتاب **أعمال بولس** على الأمر عينه أيضًا بتوسّع ومع تفاصيل عديدة، وعنه سيقتبس كتّابٌ آخَرون ويتوسّعون فيه[٤٩].

ويوجز البابا بندكتوس السادس عشر ما تجمّع لديه من معطيات حول استشهاد بولس، ويعرضها في تعليمه كما يلي: "**يُجمع التقليد المسيحيّ القديم على الشهادة بأنّ القدّيس بولس مات شهيدًا هنا في روما**. لا تورد كتابات العهد الجديد الخبر. ويختم كتاب أعمال الرسل سرده مشيرًا إلى حالة الرسول السجين، الذي كان يستطيع استقبال كلّ مَن يرتاده (رج أع ٢٨: ٣٠-٣١). فقط في الرسالة الثانية إلى تيموتاوس نجد كلمات التنبيه التالية: "أمّا بالنسبة إليّ، فها إنّ دمي سيُسفَك كقربان، وقد اقتربت ساعة إرخاء أشرعتي" (٢ تم ٤: ٦؛ رج فل ٢: ١٧). يتمّ استعمال صورتَين، صورة القربان الطقسيّة، والتي سبق واستعملها في الرسالة إلى أهل فيلبّي مفسِّرًا الشهادة كجزء من ذبيحة المسيح، وصورة بحريّة تتمثّل بإلقاء المرساة، وهما صورتان تُشيران سويّة وبشكل حصيف إلى حدث الموت، الموت الدامي"[٥٠].

ويضيف البابا قائلاً: "إنّ الشهادة الأولى الواضحة حول نهاية القدّيس بولس تأتينا في أواسط العقد التاسع من القرن الأوّل، أي بعد نحو ٣٠ عامًا من موته الفعليّ. نحن بصدد الرسالة التي كتبَتها كنيسةُ روما، بواسطة أسقفها **أكليمنضوس**، **إلى كنيسة كورنثوس**. في هذا النصّ، يدعو الأسقف الكورنثيّين إلى إبقاء مثالِ الرسولِ نُصْبَ أعينهم. وبعد ذكر استشهاد بولس، نقرأ ما يلي: "بسبب الغيرة والخصام، اضطرّ بولس أن يُظهر لنا كيفيّة الفوز بإكليل الصبر؛ فقد أُلقِي القبض عليه سبع مرّات، ونُفي، ورُجم، وكان سفير المسيح في الشرق والغرب، ولأجل إيمانه حاز مجدًا نقيًّا. بعد أن بشّر بالبرِّ في كلّ العالم، وبعد أن وصل إلى أقاصي الغرب، حاز الشهادة أمام الولاة؛ وبهذا الشكل فارق هذا العالم، ووصل إلى الموضع

(٤٧) إقليمندُس الروماني، **الرسالة إلى الكورنثيّين**، تعريب جورج نصُّور، أقدم النصوص المسيحيّة، سلسلة النصوص اللاهوتيّة ١، الكسليك ١٩٧٥. رج :
Épître de Clément de Rome aux Corinthiens. Traduction de Suzanne-Dominique, in *Les Pères Apostoliques*, coll. Foi vivante, Cerf, Paris 1990.

(٤٨) إقليمندُس الروماني، **الرسالة إلى الكورنثيّين**، المرجع السابق، رقم ٥: ٥-٧، ص ١٨.

(٤٩) **أعمال بولس** ٩: ٣-٧؛ أنظر أيضًا: إيرونيموس، **حول مشاهير الرجال** ٥؛ أوزابيوس القيصريّ، **التاريخ الكنسيّ**، ٢، ٢٥. رج:
M. ERBETTA, *op. cit.*, II, 285-288.

(٥٠) بندكتوس السادس عشر، **القدّيس بولس مات شهيدًا هنا في روما**، مقابلة الأربعاء العامّة، ٤ شباط ٢٠٠٩.

المقدّس، فصار بهذا مثالَ الصبر الأكبر" (١ أكليمنضوس ٥: ٢)[٥١].

ومن مقال للباحث دانيال مارجورا[٥٢] حول اختتام كتاب أعمال الرسل، نستنتج أنّ لوقا قد لجأ على ما يبدو إلى "بلاغة الصمت" التي تدفع القارىء إلى أن يتبيّن بنفسه كيفيّة انتهاء حياة بولس الأرضيّة، وإلى أن يختم بالتالي الرواية وفق منطق الأحداث، خاصّة وفق الخبرَين الأخيرَين في أع ٢٨، أي: النقاش اللاهوتيّ مع البعثة اليهوديّة الرومانيّة (آ ١٧-٢٨)، ومشهد الرسول وهو يبشّر في عاصمة الأمبراطوريّة (آ ٣٠ي). هذا ما دفع ببعض آباء الكنيسة إلى محاولة إيجاد أجوبة توضح سبب اعتماد هذه الطريقة في آخِر كتاب أعمال الرسل، وإلى معرفة كيفيّة انتهاء حياة بولس في مدينة روما.

ب – وجه بولس بحسب آباء الكنيسة

لننتقل الآن إلى إبراز بعض النواحي من وجه القدّيس بولس، الذي توقّف عنده آباء الكنيسة وفكّروا فيه مليًّا. ولكن ما يقوله هؤلاء في هذا المجال ما هو إلاّ تعليقٌ على ما قاله الرسول على ذاته في رسائله وتفسيرٌ له.

١ – بولس المشغوف بالمسيح

يكشف القدّيسُ بولسُ ذاتُه عن شغفه حتّى الجنون بالمسيح الإله والإنسان، وعن أنّه قد تذوّق "غناه الذي لا يُسْتَقصى"، كما جاء في رسالته إلى أهل أفسس: "أبشّر الوثنيّين بما في المسيح من غنى لا يُسبر غوره" (أف ٣: ٨)؛ يجري التشديد هنا على فيض عطايا الله لنا، من "غنى المسيح الذي لا يُستقصى" (٣: ٨) إلى "حِكمة الله المتنوّعة" (٣: ١٠)، وإلى "إدراك ما العرض والطول والعلو والعمق" (٣: ١٨)، وكلّها تعابير حِكَميّة (رج سي ١: ٣). ويكمل بولس في كول ٢: ٣ قائلاً: "فهو الذي تكمن فيه جميع كنوز الحكمة والمعرفة"؛ من الواضح أنّ السرّ هو المسيح نفسه (١: ٢٧)، حكمة الله (١ كو ١: ٢٤، ٣٠)، الخفيّة المكتومة (١ كو ٢: ٧)، التي لا يُستقصى غناها، لأنّها تفوق المعرفة (أف ٣: ٨، ١٩). ويضيف بولس: "ففي المسيح يحلّ ملء الألوهيّة كلّه حلولاً جسديًّا" (كول ٢: ٩). يُحَدَّد "الملء" هنا بلفظتين متّصلتَين في النصّ اليوناني، هما "الألوهة" و"جسديًّا"، مثل "الكلمة" و"اللحم" في يو ١: ١٤. جسد المسيح القائم من الموت، الحامل فيه الخلقَ أجمع، يحوي "ملءَ الألوهة كلّه"؛ فيه تتجمّع الحياة الإلهيّة، ومنه تتدفّق قوّةً خلاصيّةً على الإنسانية كلّها وعلى الكون أجمع.

لقد أدرجنا هذه الآيات من رسائل بولس لنُبرز مدى غوصه في سرّ الله، وإدراكه لحكمته الإلهيّة، وبالنتيجة لنتبيّن شدّة محبّته ليسوع وشغفه به. هذا ما أدركه آباء الكنيسة، لذلك راحوا يعظّمون محبّةَ الرسول للمسيح يسوع، ويسعون إلى أن يقتدوا به. في هذا المجال أطلق الذهبيُّ الفمّ قولَه الرائع في بولس، وهو التالي: "لم يُحِبَّ أحدٌ المسيحَ أكثرَ من بولس"[٥٣]؛ هذا يعني أنّه لم يُحِبَّ أحدٌ الناسَ، بمن فيهم الأعداء، أكثر منه[٥٤]، انطلاقًا من كون المحبَّتَين غير قابلتَين للانفصال، كما يعلّمنا القدّيس يوحنّا في رسالته الأولى: "إذا قال أحد: أنا أحبّ الله، وهو يكره أخاه، كان كاذبًا، لأنّ الذي لا يحبّ أخاه وهو يراه، لا يقدر أن يحبّ الله وهو لا يراه. وصيّة المسيح لنا هي: مَن أحبّ الله أحبّ أخاه أيضًا" (١ يو ٤: ٢٠-٢١). بالنسبة إلى القدّيس بولس، يقول الذهبيّ الفمّ، "كانت محبّة المسيح الأمرَ الأسمى من كلّ أمر"، وبالتالي ينبغي أن تتقدّم على أيّ حُبٍّ آخَر[٥٥].

(٥١) المرجع السابق

(٥٢) Daniel MARGUERAT, "Et quand nous sommes entrés dans Rome" . L'énigme de la fin du livre des Actes (28,16-31)", *Revue d'Histoire et de Philosophie Religieuses* 73/1 (1933) 1-21.

(٥٣) يوحنّا الذهبيّ الفم، **في الكهنوت** ٢، ٥.

(٥٤) يوحنّا الذهبيّ الفم، **تقاريظ القدّيس بولس** ٣، ٢.

(٥٥) يوحنّا الذهبيّ الفم، **تقاريظ القدّيس بولس** ٣، ٢؛ رج مت ١٠: ٣٧ي.

وكان أوريجانوس قد لفت الانتباه إلى الأمر عينه عندما قال: "نحن أيضًا، عندما نفكّر ببولس، لا نظنّ أنّه يمكن أن يوجد أحدٌ قادر على أن يتفوّق عليه في محبّة المسيح"(٥٦).

٢ – بولس الشاهد للمسيح

أن يكون بولسُ شاهدًا للمسيح، فهذا نتيجة طبيعيّة لما ورد أعلاه عن شغفه بالربّ يسوع. إنّ المحبّة تجعل المُحِبَّ مطابقًا للمحبوب، الذي يجعل منه شاهدًا حقًّا ونسخةً، إذا جاز التعبير، مطابقة للنموذج. في الواقع، يصبح المرءُ ما يُحبّ، كما يقول القدّيس أغوسطينوس: "كلٌّ واحد هو كما الحبُّ الذي عنده"(٥٧). يحوّل الحبُّ بولسَ إلى "مسيح آخر"، يجعل منه تَجَلّيًا مثاليًّا للمسيح، وبالتالي، إنسانًا متفوّقًا حقًّا؛ هذا ما يقوله هو نفسُه بافتخار ولكن باتّضاع: "لأنّي بالشريعة مُتُّ عن الشريعة لأحيا لله، وقد صُلبتُ مع المسيح" (غل ٢: ١٩)؛ ويضيف قائلاً: "وكانت حالتي الجسديّة محنة لكم، فلم تزدروني، ولم تشمئزّوا منّي، بل قبلتموني قبولكم لملاك الله، قبولكم للمسيح يسوع" (٤: ١٤)؛ وأيضًا: "فالحياة عندي هي المسيح، والموت ربح" (فل ١: ٢١)؛ وأيضًا: "أستطيع كلّ شيء بذاك الذي يقوّيني" (٤: ١٣). من هذه الآيات ومن مجمل رسائله نستنتج أنّ همّه الأوحد كان محصورًا بأن يعلن "يسوعَ المسيح، وهو مصلوبًا" (١ كو ٢: ٢؛ ١٥: ٣ي)، وقائمًا من الموت؛ فبالنسبة إليه هو وحده الضروريّ الأوحد، وهو "الكلّ": "المَسيحُ هُوَ الكُلُّ وفي الكُلّ" (كول ٣: ١١)؛ على المؤمن أن يسعى إلى تحقيق الوحدة الكاملة، حتّى يصير المسيح، أوّلاً، ثم الله الآب، آخِرًا، الكلّ في الكلّ. بالمعنى ذاته يقول في ١ كو ١٥: ٢٨: "لكِنْ مَتى أُخضِعَ للابنِ كُلُّ شَيء، فحِينَئذٍ يُخضَعُ الابنُ نَفْسُهُ للذي أَخضَعَ لَهُ كُلَّ شَيء، حتَّى يَكونَ اللهُ الكُلَّ في الكُل"؛ إنّها صورة رائعة للمرحلة الأخيرة النهائيّة من تاريخ الخلاص، حين يصبح اللهُ السيّدَ الأوحدَ المُطاع، والكلُّ خاضعًا له، وهو الكلّ في الكلّ. في الواقع، وراء بولس هناك يسوع وكلمتُه الكلّيّة القدرة وعملُه الخلاصيّ. لذلك، إنّ ما يقوله الذهبيّ الفمّ في بولس هو أكثر من صحيح، لأنّ "قلبَ بولسَ هو قلبُ المسيح"(٥٨).

كما نرى، يهوى آباءُ الكنيسة تعظيمَ القدّيس بولس وتفوّقَه على الناس الباقين وعلى كلّ المخلوقات. بالنسبة إلى البابا القدّيس إكليمنضوس، هذا الرسول هو "النموذج الأسمى للصبر"(٥٩). وبالنسبة إلى القدّيس بُوليكربّوس† ١٠٠)، "لا مثيل للطوباويّ والمجيد بولس"(٦٠)؛ كذلك هو الأمر في نظر القدّيس أمبروسيوس(٦١). ويرى القدّيس إيريناوس في بولس مَثَلاً عظيمًا على التماسك الرسوليّ(٦٢). أمّا القدّيس غريغوريوس النزينزيّ† ٣٩٠)(٦٣)، فيعتبر أنّ بولس هو الأكثر بسالة "بين المصارعين"(٦٤).

ويؤكّد أوريجانوس "أنّ بولس هو

(٥٦) أوريجانوس، تفسير الرسالة إلى **الرومانيّين**، ٥، ١٠؛ رج **ضدّ سلسيوس**، المقدّمة، ٣.

(٥٧) AUGUSTIN, *In I Jo. Tr.* 2, 14.

(٥٨) يوحنّا الذهبيّ الفم، تفسير **الرسالة إلى الرومانيّين**، ٢٣، ٣.

(٥٩) إقليمندُس الرومانيّ، الرسالة **إلى الكورنثيّين**، ٥، ٧.

(٦٠) بوليكربّوس، **الرسالة** ٣، ٢؛ رج ٩، ١ي.

(٦١) أمبروسيوس، **عظات حول البتوليّة** ٢، ٣، ٢١.

(٦٢) إيريناوس، **ضدّ الهراطقة**، ٤، ٢٦، ٤.

(٦٣) Voir Jean BERNARDI, *Saint Grégoire de Nazianze. Le Théologien et son temps (330-390)*, Cerf, Paris, 1995; André TUILIER, "Grégoire de Nazianze", *Dictionnaire de l'Antiquité*, dir. Jean Leclant, Presses universitaires de France, 2005.

(٦٤) غريغوريوس النزينزيّ، **في الصلاة**، ٢، ٤٨.

الأعظم بين الرسل"[٦٥]، و"الأعْلَم بين الأحبار، والأكثر خبرة بين الكهنة"[٦٦]. لكنّ الرسول هو كلّ هذا، يقول أوريجانوس، لأنّه "التلميذ الحقيقيّ ليسوع" أو "للربّ"[٦٧]، و"الذي يقتدي به"[٦٨] بطريقة مثاليّة، أي أنّ المعلّم الإلهيّ هو وحده حياتُه ورائدُه[٦٩].

هي المسيحيّة، في الواقع، التي تفتدي، فتجعل الإنسان نبيلاً وتعطيه ميزةً خاصّة؛ فهناك أناس أصيلون، وتامّون، وكاملون، لأنّهم يلبسون المسيح، كما يعلّم بولس ذاته، "إلى أن نصل كلّنا إلى وحدة الإيمان ومعرفة ابن الله، إلى الإنسان الكامل، إلى ملء قامة المسيح" (أف ٤: ١٣)؛ ويقول أيضًا: "إلبسوا الإنسان الجديد الذي خلقه الله على صورته في البرّ وقداسة الحقّ" (أ ٢٤)؛ ويضيف: "به ننادي ونبشّر جميع الناس ونعلّمهم بكلّ حكمة لنجعل كلّ إنسان كاملاً في المسيح" (كول ١: ٢٨).

وفي خطّ أوريجانوس، يعبّر القدّيس غريغوريوس النِيصِيّ (†٣٩٤) عن إعجابه بـ"الذكاء الحادّ"[٧٠] الذي كان لدى القدّيس بولس، ومثله لدى المسيحيّ، رجل الأمانة المطلقة للمسيح الرأسِ والنموذج[٧١]، وبالتالي الإنسان الأصيل والناضج، والمحرَّر بالتمام، والذي ارتقى إلى ما هو إلهيّ، على اعتبار أنّنا، من دون مسيح، "نحن كالسقط، وكالكائنات غير الناضجة"[٧٢]. في ما يلي نصٌّ جميل يكشف فيه النِيصِيُّ نوعيّةَ مسيحيّةِ الرسول ويعظّمها: "لقد فَهِمَ القدّيس بولس أكثر من أيٍّ آخَر مَن هو المسيح، وشرح لنا بأفعاله كيف ينبغي أن يكون مَن يحمل اسمه (أي المسيحيّ). لقد اقتدى بولسُ بالربّ بطريقة راسخة، إلى حدّ أنّه بيّن هيئة ربّه في حياته كما في تعليمه؛ فاقتداؤه الدقيقُ بالمسيح حوّلَه إلى نموذج أصيل عن يسوع، إلى حدّ أنّه صار هناك انطباعٌ أنّ الذي كان يحيا ويتكلّم لم يكن بولس بل المسيح الذي كان يحيا فيه. هذا ما يقوله هو نفسُه لأنّه كان يعي كم كانت الخيرات التي أغدقها الربُّ عليه عظيمة: "لم أَعُدْ أنا أحيا بعد، بل المسيح يحيا فيّ" (غل ٢: ٢٠)؛ ويقول أيضًا: "أنتم تبحثون عن برهان أنّ المسيح هو الذي يتكلّم فيّ" (٢ كو ١٣: ٣).

كذلك يمدح الذهبيّ الفمّ في كلّ مناسبة عظَمةَ القدّيس بولس وعَمَلَه، وقد يكون هو أعظمَ المعجبين به بين آباء الكنيسة؛ فبالنسبة إليه، يتفوّق الرسولُ على كلّ المخلوقات البشريّة والملائكيّة، كما أنّه يسمو أيضًا على كلّ المدائح التي يمكن أن تُساق تجاهه. بعد يسوع الإله والإنسان، بولس هو حقًّا الذروة الخلائقيّة لتاريخ الخلاص، وبارتباط حميم بيسوع بالتأكيد. إنّه الإنسان المتفوّق بكونه إنسانًا قدّيسًا بشكل مثاليّ، صنعَ العجائب، وطردَ الشياطين، واكتنز الفضائل حتّى أصبح مُثقلاً بطاقة خلاصيّة فريدة[٧٣]. "أكثر من الناس كلّهم، يقول الذهبيّ الفمّ، بيّن بولس ما هو الإنسان، وكم هو عظيم نُبْلُ طبيعتنا البشريّة، وكم من الفضائل يقدر هذا الكائن الحيُّ أن يتلقّى في ذاته... في الواقع، من دون أن يتَقَبَّل طبيعةً أخرى، ومن دون أن يتقاسم نَفْسًا مختلفة، ولا أن يسكن عالَمًا آخَر، بل تربّى على الأرض

(٦٥) أوريجانوس، **عظات في سفر العدد**، ٣، ٣.
(٦٦) أوريجانوس، **عظات في سفر اللاويّين**، ٤، ٦.
(٦٧) أوريجانوس، **ضدّ سلسيوس** ١، ١٣، ٤٧.
(٦٨) أوريجانوس، **تفسير إنجيل متّى** ١٠، ١٥.
(٦٩) أوريجانوس، **تفسير إنجيل يوحنّا** ١٠، ٤٥.
(٧٠) غريغوريوس النيصيّ، **التطويبات** ٥؛ ر ج:
GRÉGOIRE DE NYSSE, *Les Béatitudes,* PDF 10 (rpr.), J. Y. Guillaumin, G. Parent, A. G. Hamman, 1997.
(٧١) غريغوريوس النِيصِيّ، **عظات في سفر الجامعة** ٥؛ ر ج *Homélies sur l'Ecclésiaste* , SC 416, F. Vinel, Paris, 1996.
(٧٢) غريغوريوس النِيصِيّ، **العظة** ٥.
(٧٣) يوحنّا الذهبيّ الفم، **تقاريظ القدّيس بولس**، في عدّة أماكن من الكتاب.

ذاتها، وفي المنطقة ذاتها، وبالشرائع والأعراف ذاتها، تفوّق على كلّ الناس الذين وُجِدوا، منذ ما وُجِدَ البشر"(٧٤).

ويضيف الذهبيّ الفمّ إنّ الرسول هو تلك العظمة المميّزة، التي لا شبيه لها، إمّا بفضل علاقته الحيويّة بالمسيح، "القدرة الإلهيّة التي لا تُقْهَر"(٧٥)، وإمّا بفضل "الالتزام الشخصيّ" الجدّيّ بالاقتداء "بربّه"(٧٦). إنّه المبدأ اللاهوتيّ "للعمل الخلاصيّ المشترك"(٧٧) بين الله والإنسان، الغالي على قلب اللاهوت الشرقيّ(٧٨). يعلّمنا بولس هكذا بمثله الشخصيّ، كيف نصبح مسيحيّين حقيقيّين، مسحاء آخَرين، أناسًا جُدُدًا وكاملين، عاملين للخير وصالحين.

ويتساءل القدّيس أمبروسيوس قائلاً: "مَن أقوى من بولس؟ مَن أكثر طوباويّة منه؟"(٧٩). أمّا القدّيس إيرونيموس فيقول في بولس إنّه "الأخير في الترتيب الزمنيّ"، و"الأوّل من حيث الاستحقاقات"(٨٠)، بالمقارنة مع الرسل الباقين، مؤكّدًا بذلك ما يقوله بولس نفسُه: "إن كانوا خَدَمَ المسيح، أقول هذا كأحمق، فأنا أفوقهم: في الجهاد جاهدت أكثر منهم، في دخول السجون قاسيت أكثر منهم، في الضرب تحمّلته أكثر منهم بكثير..." (٢ كو ١١: ٢٣ي). ويُبرز القدّيس إيرونيموس مسيحيّةَ بولس بالكلام الرفيع التالي: "هو المسيح مَن يكرّر فيه أقواله"، تلك التي "كان قد فاه بها في الإنجيل"(٨١)، لذا إنّ "ما يقوله بولس، يقوله المسيح (نفسه)"(٨٢)؛ هذا ما سمح لبولس بأن يتفوّه بالكلام التالي: "تطلبون برهانًا على أنّ المسيح ينطق بلساني..." (٢ كو ١٣: ٣).

بدوره يعترف القدّيس أغوسطينوس بعظمة القدّيس بولس، فيرى فيه "الإنسان الأكثر صلاحًا والأقوى"، و"بطل المسيح"(٨٣)، "جنديّ الجيش السماويّ، وليس غبارًا كما نحن"(٨٤)، و"صديقَ العريس"(٨٥). ونحن نعلم أنّ أغوسطينوسُ قد قرأ بولسَ بنَهَم، فاستفاد كثيرًا(٨٦)، ويدين له بتوبته النهائيّة(٨٧)، وبالدعم في نموّه الروحيّ، خاصّة مع كلمات الرسول التالية: "أستطيع كلّ شيء بالذي يهبني القوّة" (فل ٤: ١٣)، تلك "الكلمات التي أُحِبُّ كثيرًا"، يقول أغوسطينوس(٨٨).

٣ – بولس رسول المسيح

اعترفت الكنيسة أبدًا بأنّ القدّيس بولس هو "الرسول" بامتياز، وذلك لاتّساع حقلِ عمله، ولفعاليّة نشاطه التبشيريّ. قال البابا القدّيس إكليمنضوس: "إنّ بولس قد عَمِلَ من نفسِه بشيرًا (للإنجيل) إنْ في الشرق وإنْ في الغرب"، و"عَلَّمَ البِرَّ للعالم بأسره، وبلغ حتّى أقاصي الغرب"(٨٩)، أي إلى إسبانيا. ويدعوه إكليمنضوس الإسكندريّ (القرن الثاني–الثالث) "رسولَ الربِّ المُلْهَمَ إلهامًا إلهيًّا"(٩٠). إنّه

(٧٤) يوحنّا الذهبيّ الفم، **تقاريظ القدّيس بولس**، ٢، ١.
(٧٥) يوحنّا الذهبيّ الفم، **تقاريظ القدّيس بولس**، ٤، ١٠ي.
(٧٦) يوحنّا الذهبيّ الفم، **تقاريظ القدّيس بولس**، ٥، ١ي؛ رج ٦، ٣ي.
(٧٧) يستعمل الذهبيّ الفم الكلمة اليونانيّة συνεργια، التي تعني حرفيًّا "التعاون، والتعاضد، والتآزر، والعمل معًا"، ليتكلّم على تجاوب الإنسان مع تدبير الله الخلاصيّ، الأمر الذي يُفضي إلى تحقيق ما يصبو الله إليه.
(٧٨) Cf. P. EVDOKIMOV, *L'Ortodossia*, Bologna 1966, 142ss. 397ss.
(٧٩) أمبروسيوس، **حضٌّ على البتوليّة**، ١٤، ٩٢.
(٨٠) إيرونيموس، **الرسالة**، ٥٨، ١.
(٨١) إيرونيموس، **الرسالة**، ٥٥، ٤.
(٨٢) إيرونيموس، **في المزامير**، ٨٦، ٦.
(٨٣) أغوسطينوس، **مدينة الله**، ١٤، ٩، ٢.
(٨٤) أغوسطينوس، **الاعترافات**، ١٠، ٤٥.
(٨٥) أغوسطينوس، **الاعترافات**، ١٣، ١٤.
(٨٦) أغوسطينوس، **الاعترافات**، ٧، ٢٧؛ ٨، ١٤؛ ١٣، ٨، ١٣–١٥.
(٨٧) أغوسطينوس، **الاعترافات**، ٨، ٢٩.
(٨٨) أغوسطينوس، **الاعترافات**، ١٠، ٤٥.
(٨٩) إقليمندُس الرومانيّ، **الرسالة إلى الكورنثيّين**، ٥، ٦ي.
(٩٠) CLEMENT d'ALEXANDRIE, *Protreptique aux grecs*, 1, 7, 2.

بنوع خاصّ "رسول الأمم وملفانها"، كما يصفه آباء الكنيسة، أوريجانوس[٩١]، ويوحنّا الدمشقي[٩٢]، وأومبروسيوس[٩٣]، وأغوسطينوس[٩٤].

وبكونه رسولاً، فإنّه حضورٌ حيٌّ وناشط للمسيح الإله والإنسان: "لقد قبلتموني كأنّي ملاك الله، بل المسيح يسوع" (غل ٤: ١٤؛ رج ٢ كو ١٣: ٣)؛ عن هذا القبول كان يسوع قد تكلّم قائلاً: "مَن قَبِلَكُم قبلني، ومَن قبلني قَبِلَ الذي أرسلني" (رج مت ١٠: ٤٠)؛ أيضًا: "الحقّ الحقّ أقول لكم: مَن قَبِلَ الذين أرسلهم قَبِلَني. ومَن قَبِلَني قَبِلَ الذي أرسلني" (يو ١٣: ٢٠). بولس بالتالي هو التجليّ الحقيقيّ للمسيح، لذلك أضحى هو تقريبًا كلّ شيء، أي: مبشّرًا بالإنجيل، ومفسّرًا للكتاب المقدّس، وليتورجيًّا، وأبًا روحيًّا، ومُربّيًا في الإيمان، وطاردَ الشياطين، وصانعَ العجائب، ومخلِّصًا، إلخ، وكلّ ذلك بلا قياسٍ وبالنوعيّة الأَجْوَد والأفضل.

يمدح آباء الكنيسة عظمةَ رسوليّةِ بولس ومثاليّتَها؛ ويبلغ أوريجانوس حَدَّ إعطاء بولس لقب "مؤسِّسَ الكنائس المسيحيّة"[٩٥]، لكن بالطبع بعد المسيح، و"معلّمَ الكنيسة" في المجال البيبليّ، وبمعنى ما، أبَا التفسير المسيحيّ والكنسيّ للكتب المقدّسة[٩٦].

بالنسبة إلى الذهبيّ الفمّ، بولس الرسول هو تمامًا "الأبُ المشتَرَك لكلّ العالم"، أبٌ يفوق "أيَّ أبٍ، وذلك بسبب اعتنائه بالكلّ ماديًّا وروحيًّا معًا..."[٩٧]. إنّه حقًّا ظاهرةُ أبوّةٍ روحيّة وشاملة، وهذا ما نتبيّنه من كلامه هو بالذات: "لا أكتب هذا لأجعلكم تخجلون، بل لأنصحكم نصيحتي لأبنائي الأحبّاء؛ فلو كان لكم في المسيح عشرة آلاف مرشد، فما لكم آباء كثيرون، لأنّي أنا الذي ولدكم في المسيح يسوع بالبشارة التي حملتها إليكم" (١ كو ٤: ١٤-١٥)؛ ويضيف: "أمّا أنا فما استعملت أيّ حقّ من هذه الحقوق، ولا أنا أكتب هذا الآن لأطالب بشيء منها؛ فأنا أفضّل أن أموت على أن يحرمني أحد من هذا الفخر. فإذا بشّرت، فلا فخر لي، لأنّ التبشير ضرورة فُرِضت عليّ، والويل لي إن كنت لا أبشّر" (٩: ١٥-١٦)؛ وأيضًا: "ها أنا مستعدّ أن أجيء إليكم للمرّة الثالثة، ولن أثقّل عليكم، فأنا أريدكم أنتم لا مالكم؛ فالأبناء لا يوفّرون لآبائهم، بل على الآباء أن يوفّروا لأبنائهم" (٢ كو ١٢: ١٤ي). هذه حقيقةٌ يعيشها القدّيسون بحرارة وبكثافةٍ خاصّة. لقد اختار أوريجانوسُ بولسَ أبًا ونموذجًا وهاديًا روحيًّا، كما سيفعل القدّيس شارل دو فوكو لاحقًا[٩٨].

٤ – بولس مثال يُحتَذَى

كما علّم الربُّ يسوع[٩٩]، يتطلّب بولس بدوره من تلاميذه وتابعيه السيرَ على خطاه والاقتداءَ به، لأنّ "الوَرَع الحقيقيَّ هو اقتداء"، كما يعلّمنا القدّيسان أغوسطينوس[١٠٠] ويوحنّا الدمشقي[١٠١]. إنّه "اقتداء" لأنّ الوَرَع هو في الحقيقة فعل محبّة: "عندما يحبُّ

(٩١) أوريجانوس، **عظات في سفر الخروج**، ٥، ١.
(٩٢) يوحنّا الدمشقيّ، **مقالة في الإيمان الأرثوذكسيّ**، ٤، ١٦.
(٩٣) أمبروسيوس، **في البتولية** ١، ٥، ٢٣.
(٩٤) أغوسطينوس، **مدينة الله** ١٤، ٩، ٢.
(٩٥) أوريجانوس، **ضدّ سلسيوس** ١، ٦٣.
(٩٦) أوريجانوس، **عظات في سفر الخروج** ٥، ١. رج H. De LUBAC, *Storia e Spirito*, ed. Paoline 1971, 100ss.
(٩٧) يوحنّا الذهبيّ الفم، **تقاريظ القدّيس بولس** ٣، ٩؛ رج ٣، ٦؛ ٢، ٨.
(٩٨) CHARLES DE FOULCAUD, *Scritti spirituali* 9/1, Città Nuova 1974, p. 207.
(٩٩) لنقرأ بعض أقوال يسوع في هذا المجال: "تعلّموا منّي تجدوا الراحة لنفوسكم" (مت ١١: ٢٩)؛ "من أراد أن يتبعني، فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني" (١٦: ٢٤)؛ "أنا أعطيتكم ما تقتدون به، فتعملوا ما عملته لكم" (يو ١٣: ١٥).
(١٠٠) أغوسطينوس، **حول إنجيل يوحنّا**، ٨٤، ١.
(١٠١) يوحنّا الدمشقيّ، **الإيمان الأرثوذكسيّ**، ٤: ١٥. رج جوزف نصرالله، **منصور بنُ سرجون المعروف بالقدّيس يوحنّا الدمشقيّ، عصره، حياته، مؤلّفاته**، عرّبه بتصرّف عن النصّ الفرنسيّ أنطون هبّي، سلسلة "الفكر المسيحيّ بين الأمس واليوم"، المكتبة البولسيّة، لبنان ١٩٩١؛ رج القديس يوحنّا الدمشقيّ، **المئة مقالة في الإيمان الأرثوذكسيّ**.

المرءُ يقتدي"، كما جاء في تعليم القدّيس أغوسطينوس[١٠٢].

بالتأكيد، لا يريدنا بولس مستمعين للاهوته ومعجبَين به ومصفّقين له، بل "مقتدين" بسلوكه الحياتيّ، الذي هو تجسيدٌ مثاليٌّ لعقيدته، كما ينبغي أن تكونه حياة كلِّ مسيحيّ[١٠٣]. لنقرأ مرّة أخرى قولَه الشهير: "إقتدوا بي كما أقتدي أنا بالمسيح" (١ كو ١١: ١؛ رج ٤: ١٦؛ ٢ تس ٣: ٧؛ فل ٣: ١٧). ونحن نعلم كيف كان هو، وإلى أيّ مستوى روحانيّ بلغ، إلى حدّ أنّه استطاع أن يقول: "لست أنا الحيّ بعد، بل المسيح يحيا في" (غل ٢: ٢٠). في هاتين الجملتَين، اللتَين فسّرهما مرّات عدّة آباء الكنيسة، يكمن سرُّ بولس، وسببُ جودتِه كمسيحيّ وكرسول لا مثيل له.

في ١ كو ١١: ١، يعلن بولس مبدأً مقدَّسًا، هو أنّه يمكن أن يُطلَب من الآخَرين أن يقتدوا، إذا كان الطالبُ يقتدي هو أوّلاً بالمسيح المعلِّم، الإله والإنسان، "النموذج الأسمى". إنّه، كما أسلَفنا، "مبدأٌ مقدّس"، وبالتالي ينبغي أن يتجلّى في الممارسة، خاصّة لدى مَن عليهم أن يعطوا المثل الصالح للآخَرين، أعني بهم الرعاة الذين عليهم أن "يكونوا قدوة للرعيّة"، كما يوحي القدّيس بطرس (١ بط ٥: ٣)، وهذا مفتَرَض بالتحديد في حياة "مُعلِّميّ إسرائيل"، كما قال يسوع لنيقوديموس: "أنت معلِّم في إسرائيل ولا تعرف؟" (يو ٣: ١٠)؛ أو: "معلِّموّ الشريعة والفريسيون على كرسي موسى جالسون" (مت ٢٣: ٢ي)[١٠٤].

من ناحيتهم، يقتدي آباء الكنيسة ببولس، ويحضّون على ذلك؛ هكذا، في القرنَين الأول والثاني، مثلاً، فعل إكليمنضوس بابا روما[١٠٥]، وبوليكربُّوس[١٠٦]. ويذكر أوريجانوس بنوع خاصّ المبدأ الذي يستطيع بولس أن يطلب منّا أن نعتمده وأن نقتدي به، لأنّه هو نفسه مقتدٍ بالمسيح، النموذجِ الأوّليّ والوحيد الذي ينبغي أن نقتدي به[١٠٧]. ويشير إليه بعد ذلك كمَثَلِ حياةٍ لجميع المسيحيّين: "الخطأة"، و"البسطاء"، وخاصّةً "الكاملون". لنقرأ في هذا السياق نصًّا وعظيًّا جميلاً جدًّا تركه لنا أوريجانوس العالِم الكنسيّ بامتياز:

"أنا أستطيع أن أكون بولس إذا اقتديتُ بمن يقول: "إقتدوا بي" (١ كو ٤: ١٦)، إذا كان لي الوَسْمُ الذي به وُسِمَ بولس، وإذا امتلكتُ الصورةَ ذاتَها التي وَفْقَها قَوْلَبَ ذاتَه في المسيح... بالمقابل، واستنادًا إلى تنوّع الوَسْم، إذا وَعيْتُ أنّ بولس كانت له صورة مختلفة عن تلك التي لي في نَفْسي، عندها أقول لذاتي: أنت ابنُه، أنتَ زَرْعُ بولس. لا تعجب من أنّك تصبح ابنَ الرسول؛ إمتلك فضائله فتصبح ابنَ المسيح الذي يقول: "يا أبنائي، أنا معكم لزمن قصير" (يو ١٣: ٣٣). عندما تصبح للمسيح، تصبح أيضًا لله، لأنّ الاثنين هما من طبيعة فريدة وغير متقسمة"[١٠٨].

إنّ هذا النصّ، وهو عَيِّنَة رائعة عن تفسير أوريجانوس البيبليّ، ينوّر منّا الأذهان ويجعل القلوب عامرةً بمحبّة الربّ وخفّاقة بحضوره. ليس الاقتداء المسيحيّ تقليدًا لأحدٍ أو لأمرٍ ما خارجيًّا أو مظهريًّا، بل أن يصبح الإنسان شريكًا في كينونة النموذج، ونسخة عنه أمينة، فيتكلّم، ويفكّر، ويعمل في كلّ شيء كالنموذج ذاته[١٠٩]. لكنّ بولس هو أكثر من نموذج مُتَفَرِّع عن يسوع؛ إنّه انقياد له ومطابقة معه، وفي النهاية، مطابقة مع النموذج

(١٠٢) أوغوسطينوس، **حول إنجيل يوحنّا** ٣٤، ٩؛ أنظر أيضًا **العظات** ٣٠٤، ٢. رج **شرح رسالة القدّيس يوحنا للقدّيس أوغوسطينوس**، ترجمة وتحقيق يوحنّا الحلو، سلسلة التراث الروحيّ، دار المشرق، بيروت ٢٠٠١.

(١٠٣) CLEMENT d'ALEXANDRIE, *Protreptique aux grecs*, 12, 123, 1.

(١٠٤) أوغوسطينوس، **العظات** ٤٧، ١٢.

(١٠٥) إقليمندُس الرومانيّ، **الرسالة إلى الكورنثيّين**، رقم ٥.

(١٠٦) بوليكربّوس، **الرسالة** ٩.

(١٠٧) أوريجانوس، **عظات في سفر حزقيّال** ٧، ٣؛ **تفسير إنجيل متّى** ١٠، ١٥.

(١٠٨) أوريجانوس، **عظات في سفر حزقيّال** ٤، ٥.

(١٠٩) أوريجانوس، **في المبادىء** ٤، ٤، ٤. رج جورج خوّام، **أوريجانس، في المبادىء**، ص ٤٢٥-٤٢٧.

الأصليّ والأوّل، يسوع الإله والإنسان، والوحيد الذي ينبغي الاقتداء به، كما أسلفنا. بالإمكان بالتالي أن نختم بالقول: ببولس إلى المسيح، كما بالمسيح إلى الله الآب: "أَمَّا أَنْتُم فَلِلْمَسِيحِ، والمَسيحُ لله" (١ كو ٣: ٢٣؛ رج كول ٣: ١٧؛ يو ١٤: ٦). قد لا يكون ممكنًا إبرازُ مسيحيّةِ بولسَ وخدمتِه الثمينةِ للمسيحيّين بطريقة أفضل، ولا مدحه على الاثنتين أكثر من ذلك.

وهناك أيضًا أمر هامّ ينبغي لفت الانتباه إليه، وهو أنّه، بالنسبة إلى أوريجانوس، لا يمكن أن يكون الإنسان تلميذًا حقيقيًّا للقدّيس بولس وابنًا روحيًّا له، وبالتالي للمسيح ولله الآب، دون الاقتداء "بفضائله". لا يكفي بالتالي معرفة عقيدته وفكره اللاهوتيّ وحسب، بل ينبغي مقاسمته فضائله المثاليّة، ومسيحيّته الصافية، وإلاّ كان ذلك تفانيًا ناقصًا ونافلاً، وغيرَ مُرْضٍ.

ويقترح القدّيس غريغوريوس النزينزيّ على رعاة الكنيسة مَثَلَ القدّيس بولس المُربّي[١١٠]. كذلك يفعل الذهبيّ الفمّ[١١١] الذي يقدّم المَثَلَ عينَه في كلّ مناسبة لجميع المعمَّدين[١١٢]، حاثًّا إيّاهم، "ليس على إبداء الإعجاب فقط، بل على الاقتداء بهذا النموذج للفضائل أيضًا"[١١٣]. ويوضح أنّ الاقتداء بالرسول هو دائمًا ممكن، بالإضافة إلى كون ذلك متوجّبًا، لأنّه هو "قد تقاسم كلّ شيءٍ معنا"[١١٤]، و"كان له جسد كجسدنا، وكان يغتذي مثلنا، وكانت له النَفْس ذاتُها"، لذا، "إذا ما سعينا في إثر الفضيلة بحرارة، لا شيء يحول دون أن نصبح مثل بولس"[١١٥]. أمّا على الانهزاميّ فيردّ الذهبيُّ الفم بما يلي: "ثمّ إذا قلتَ: كيف يمكن الاقتداء بأناس كهؤلاء؟، إسمع ما يقوله: "إقتدوا بي، كما أقتدي أنا بالمسيح" (١ كو ١١: ١). لقد أصبح هو مقتديًا بالمسيح، وأنت لا تستطيع أن تفعل مثله؟ إنّ الاقتداء بالقدّيسين يحضّ على الاقتداء بالمسيح الربّ ويسهّله.

خاتمة

لقد حاولنا في هذه العجالة أن نقدّم لوحة عامّة، ودون الدخول في تفاصيل المعطيات والأمور، عن مكانة القدّيس بولس لدى آباء الكنيسة، وعن شغفهم به، هو الذي شُغِف قبلهم بالمسيح حتّى صار طريقًا حقًّا إليه، وعمّا حرّروه من كتابات ثمينة عنه وعن رسائله. يبقى أن نأمل بأن تكون هناك مبادرات لنشر نتاج الآباء العظام هذا في العربية تعميمًا للخير الذي كانوا، وعلى مثال بولس، يتوقون إلى أن يروه يعمّ الدنيا كلّها وشعوب الأرض بأجمعهم.

على مثال هؤلاء الآباء القدّيسين، لا يكفي أن نكون معجبين بالرسول بولس وحسب، بل ينبغي أن نقتدي به بالطرق الأكثر فاعليّةً وتفعيلاً والتزامًا، وهذا ما يذكّروننا به بقوّة بكتاباتهم وبمثلهم الصالح، خاصّة القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفمّ؛ في النهاية، هذا ما يتوقعّه بولس ذاته منّا في الذكرى الألفيّة الثانية لمولده.

(١١٠) Grégoire de NAZIANZE, *Or.* 2, 51s.

(١١١) يوحنّا الذهبيّ الفم، **في الكهنوت** ٤، ٨ي؛ رج بولس الفغالي، "مقالات في الكهنوت للقدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم"، **المرجع المذكور**، ص ٢٩-٥٠.

(١١٢) يوحنّا الذهبيّ الفم، **التعليم الدينيّ** ، ٨، ٧ي؛ ٩، ١٩ي.

(١١٣) يوحنّا الذهبيّ الفم، **تقاريظ القدّيس بولس** ٢، ١٠؛ رج أيوب شهوان، "مديح يوحنّا الذهبيّ الفم للقدّيس بولس الرسول"، **بيبليا** ٣٧ (٢٠٠٨) ٧٧-٨٢.

(١١٤) المرجع السابق.

(١١٥) يوحنّا الذهبيّ الفم، **تقاريظ القدّيس بولس** ٥، ٢؛ رج ٣، ١.

المراجـــع

إقليمندُس الروماني، **الرسالة إلى الكورنثيّين**، تعريب جورج نصّور، أقدم النصوص المسيحيّة، سلسلة النصوص اللاهوتيّة ١، الكسليك ١٩٧٥.

حلاّق تيودو، **اللاهوت الصوفيّ حسب القدّيس غريغوريس النيصيّ ٣٣٥-٣٩٤**، سلسلة الفكر المسيحيّ بين الأمس واليوم، المكتبة البولسيّة، لبنان ٢٠٠١.

حلو (الـ) يوحنا (مترجم)، **اعترافات القدّيس أغوسطينوس**، سلسلة التراث الروحيّ، دار المشرق، بيروت ٢٠٠٣.

ـــــ، **شرح رسالة القدّيس يوحنّا الأولى للقدّيس أغوسطينوس**، سلسلة التراث الروحيّ، دار المشرق، بيروت ٢٠٠١.

ـــــ، **مدينة الله للقدّيس أوغسطينوس**، ٣ مجلّدات، سلسلة التراث الروحيّ، دار المشرق، بيروت ٢٠٠٢.

خوّام جورج، **أوريجانس، في المبادىء**، سلسلة الفكر المسيحيّ بين الأمس واليوم ٣١، منشورات المكتبة البولسيّة، لبنان ٢٠٠٣.

شديد إسكندر (ترجمة)، **أعمال بولس**، في: **الأعمال والرسائل المنحولة**، سلسلة الكنيسة في الشرق ٩، نِسْبِيْن-غوسطا ١٩٩٩، ص ١٥٣-١٩٥.

غريغوريوس النزينزيّ، **الخطب ٢٧-٣١ اللاهوتيّة**، سلسلة النصوص اللاهوتيّة، المكتبة البولسيّة، لبنان ١٩٩٣.

غريغوريوس النيصِيّ، **رسائل**، سلسلة نصوص متنوّعة، المكتبة البولسيّة، لبنان ٢٠٠٤.

فغالي (الـ) بولس، "مقالات في الكهنوت للقدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم"، في: **يوحنّا الذهبيّ الفم في المئويّة السادسة عشرة لوفاته**، سلسلة آباؤنا المعلّمون ٢، المكتبة البولسيّة، لبنان ٢٠٠٨، ص ٢٩-٥٠.

ـــــ، **يوحنّا الذهبيّ الفم في المئويّة السادسة عشرة لوفاته**، سلسلة آباؤنا المعلّمون ٢، المكتبة البولسيّة، لبنان ٢٠٠٨.

كويتر إلياس (كتابة وجمع وتنظيم)، **خطيب الكنيسة الأعظم، القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفمّ: حياته وبعضٌ من مواعظه**، ترجمها آباء مخلّصيّون، المكتبة البولسيّة، لبنان ٢٠٠٢.

ـــــ، **القدّيس باسيليوس الكبير: حياته، أبحاث عنه، مواعظه**، المكتبة البولسيّة، لبنان ١٩٨٩.

نصرالله جوزف، **منصور بنُ سرجون المعروف بالقدّيس يوحنّا الدمشقيّ عصره، حياته، مؤلّفاته**، عرّبه بتصرّف عن النصّ الفرنسيّ أنطون هبّي، سلسلة الفكر المسيحيّ بين الأمس واليوم، المكتبة البولسيّة، لبنان ١٩٩١.

يوحنّا الدمشقيّ (القديس)، **المئة مقالة في الإيمان الأرثوذكسيّ**، عرّبه عن النصّ اليونانيّ أدريانوس شكّور، سلسلة الفكر المسيحي بين الأمس واليوم، المكتبة البولسيّة، لبنان ١٩٩١.

يوحنّا الذهبيّ الفم، **تقاريظ القدّيس بولس**، سلسلة النصوص التقريظيّة، المكتبة البولسيّة، لبنان ٢٠٠٢.

يوسابيوس القيصريّ، **تاريخ الكنيسة**، ترجمة مرقس داود، مكتبة المحبّة ١٩٩٨.

يوستينوس (القدّيس)، **الدفاع عن المسيحيّين. الحوار مع تريفون**، تعريب جورج نصّور، أقدم النصوص المسيحيّة، سلسلة النصوص الليتورجيّة ٧، الكسليك ٢٠٠٧.

Actes de Paul et de Thècle, in B. BAUER, *Les apocryphes du NT*, coll. Lire la Bible, no 37, Cerf, Paris 1973, p. 78)édition originale allemande : 1988(.
ATHANASE, *Lettres festales*, CSCO 151, Cerf, Paris 1991.
AMBROISE, *Exhortatio virginitatis*, de 394 ou 395, PL, t. XVI, col. 335-364.
ALTANER B., *Patrologia*, Marietti 1977.
AUGUSTIN, *Tracatus in Joh. Ev.= Sur l'évangile de Jean.*
_____, *Retractationes = Les retractations.*
BAUER Johannes-Baptist, *Les apocryphes du NT*, coll. Lire la Bible, no 37, Cerf, Paris 1973.
BERNARDI Jean, *Saint Grégoire de Nazianze. Le Théologien et son temps (330-390)*,Cerf, Paris, 1995.
BOLLOK János, "The Description of Paul in Acta Pauli", in Jan N. BREMMER, *The Apocryphal Acts of Paul and Thecla*, Kampen 1996, p. 1-15.
BOVON F., ESBROECK van M., GOULET R., JUNDO E., KASTELI J.-D., MORARD F., POUPON G., PRIEUR J.-M., TISSOT Y., *Les Actes de Paul*, in : *Les Actes apocryphes des Apôtres*, Labor et Fides, Genève 1981, p. 295-298.
et GEOLTRAIN François (éditeurs), *Écrits apocryphes chrétiens* I, Bibliothèque de la Pléiade, Gallimard 1997.
BREMMER N., *The Apocryphal Acts of Paul and Thecla*, Kampen 1996.
CIGNELLI L., *Maria nuova Eva nella Patristica greca*, Assisi 1966.
_____, *Maria e la vita consacrata nei Padri della Chiesa*, Gerusalemme 2006.
_____, "Il rapporto Maria-Giovanni evangelista nell'exegesi patristica", in AA.VV., *Tuo padre e io ti cercavamo (Lc 2, 48)*, Jerusalem, Studium Theol. Salesianum 2007.
COCCHINI F., *Il Paolo di Origene*, Roma 1992.
DEBIÉ M., DESREUMAUX A., JULLIEN C. et JULLIEN F., *Les apocryphes syriaques*, Études syriaques 2, Geuthner 2006.
DRAGON Gilbert, *Vie et miracles de Sainte Thècle*, Subsidia Hagiographica, no 62, 1978.
Épître de Clément de Rome aux Corinthiens. Traduction de Suzanne-Dominique, in *Les Pères Apostoliques*, coll. Foi vivante, Cerf, Paris 1990.
ERBETTA M., *Gli apocrifi del NT*, II, Marietti 1966.
_____, *Gli apocrifi del NT,* I/1: *Vangeli, Scritti affini ai vangeli canonici, composizioni gnostiche, materiale illustrativo,* Marietti 1975.
_____, *Gli apocrifi del NT,* I/2: *Vangeli Infanzia e Passione di Cristo, Assunzione di Maria,* Marietti 1981.
_____, *Gli atti di Paolo, in Atti e leggende*, Marietti 1966, p. 243-302.
EUSÈBE, *Histoire Ecclésiastique.*
GRANT Robert, "The Description of Paul in the Acts of Paul and Thecla", *Vigiliae christianae*, 36 (1982) 1-4.
GRÉGOIRE DE NYSSE, *Oratio Catechetica.*
_____, *Les Béatitudes*, PDF 10 (rpr.), J. Y. GUILLAUMIN, G. PARENT, A. G. HAMMAN, 1997.
_____, *Homélies sur l'Ecclésiaste*, SC 416, F. VINEL, Paris, 1996.

IRÉNÉE DE LYON, *Adversus haereses*.
_____, *Contre les hérésies*, Cerf, coll. "Sources chrétiennes" : Livre I, 1979, 416 p.; Livre II 1982, 376 p.; Livre III : 1974, 448 p.; Livre IV : 1965, 2 vols., 1008 p.; Livre V : 1969, 480 p.
_____, *Contre les hérésies. Dénonciation et réfutation de la gnose au nom menteur*, trad. Adelin Rousseau, ³1991, 752 p.
JEAN CHRYSOSTOME, *De laudibus Pauli*.
_____, *De sacerdotio*.
_____, *Catéchèses ou Instructions aux Catéchumènes*.
JEAN DAMASCÈNE, *L'exposé de la foi orthodoxe* (= *De fide orthodoxa*).
JÉROME, *De viris illustribus*.
MARGUERAT Daniel, "'Et quand nous sommes entrés dans Rome'. L'énigme de la fin du livre des Actes (28, 16-31)", *Revue d'Histoire et de Philosophie Religieuses* 73/1 (1993) 1-12.
MOPSIK Charles (présentation), *Actes de Paul*, in *Les évangiles de l'ombre*, Lieu Commun, Paris 1983, p. 225-253.
ORIGÈNE, *De oratio*.
_____, *De principiis*.
RENAN Ernest, *Saint Paul*, Paris 1869.
SAVON H., *Ambroise de Milan* (340-397), Desclée, Paris, 1997.
TERTULLIEN, *Ad uxorem*.
Transitus Romano.
TUILIER André, "Grégoire de Nazianze", *Dictionnaire de l'Antiquité*, dir. Jean Leclant, Presses universitaires de France, 2005.